د. شهرة بلغول

المحاضرة العاشرة:

النماذج البشري

1/ المفهوم:

يقصد بالنموذج البشري الآلية التي يشكّل الكاتب من خلالها صورة متكاملة الأبعاد للشخصية الأدبية، فتتجسد من خلالها جملة من الفضائل أو النقائص التي تترك أثرا عميقا في وجدان كل من يتلقاها، ويعود ذلك إلى أنّ الكاتب يرصد من خلالها كل الدقائق النفسية للشخصية فيجعلها تتطابق مع تصورات المتلقي الواقعي وتتوحّد معه إنسانيا.

يعبِّر النموذج البشري بشكل عميق عن الوضع البشري الواقعي، بكل تناقضاته وإيجابياته، ويهدف الكاتب من خلاله إلى خلق شخصية بشرية نموذجية تتماثل مع نفسيات وطبائع القراء، وتجسّد السمات النفسية الأكثر تعقيدا في الذات الإنسانية؛ حيث يضيف إليها جرعات من المأساوية لتكون أكثر تأثيرًا، مستثمرًا في ذلك تجاربه الشخصية ومخزونه الفكري والأدبي.

يزخر الأدب بنماذج إنسانية خالدة، تتعدد تعدد الآداب ذاتها، لكنها تتجاوز أبعادها المحليّة لتصير إنسانيّة بالنظر إلى قدرتها على تجسيد هواجس الإنسان وآماله وخيباته في كل زمان ومكان، من ذلك نذكر عنترة في الأدب العربي (الرمز الأعلى للفروسية) وفاوست في الأدب الألماني (رمز الإنسان الذي يبيع نفسه لقوى الشر/ أو الطموح) ودون جوان في الأدب الإسباني (رمز المجون، التمرد، الحب والتصوف)، وتشترك هذه النماذج الأدبيّة في كونها قادرة على تغيير ملامحها حسب المكان والزمان الذي توظف فيه نتيجة الإمكانات التخييلية التي يضفيها الأدب ليتوافق مع رؤية المبدع، لكن القاسم المشترك بينها أنّها مستوحاة في مجملها من مصادر محددة.

2/ مصادر تشكيل النموذج البشري:

يشير ريمون طحون في كتابه "الأدب المقارن" إلى تتعدّد مصادر تشكيل النماذج البشرية، على نحو يتيح إمكانيّة الاستعانة بروافد الثقافة الإنسانية على اختلافها، ومن تلك المصادر نذكر:

أ-التاريخ الأسطوري والخرافي:

عدد كبير من الأبطال يعود إلى أصول أسطورية مثل برومثيوس الذي خان الآلهة حبا بالبشر، فقد عالج الكتّاب عبر العصور المختلفة شخصيات مستمدة من الميثولوجيا الإغريقية أو الرومانية أو حتى القرون الوسطى مثل هرقل، هيلينا، إفجينيا ، أرثر وأصحابه (فرسان المائدة المستديرة).وقد انبثقت عن هذه الأسطورة قصة جانبية للحب الذي يتغلب على الصعاب بما فيها الموت وبطلاها هما تريستان وإيزورلت.

ب ـ الكتب المقدسة:

يرى ريمون طحان في كتابه "الأدب المقارن"[1] أن هذا النوع من الأبطال يبرز في العصور التي يضعف فيها الإيمان، والنصوص الدينية معين لا ينضب من نماذجها لكن الأديب ليس مجبرا على المحافظة على أبعاد الشخصية كما وردت في النصوص المقدسة، فقد تأتي شخصية المسيح غير مطابقة لأبعادها في الإنجيل، والسبب في ذلك هو نقل الشخصية من مجالها التاريخي إلى مجال الرمز.

ج-التقاليد القومية:

لكل شعب تراث قصصي يتداوله الرواة، إذ يعمل الكتاب على جمع ذلك الشتات فيحورون فيه ويضيفون إليه، كما تنتقل تلك القصص بين الأمم فتقتبس منه ما يتماشى مع بيئاتها من ذلك الأدب القصصي الذي يدور حول شخصيات بطولية كعنترة ، دون جوان، فاوست...إلخ.

د-التاريخ القديم والحديث:

---

[1] -ريمون طحان، ص71-73.

تعد الشخصيات التاريخية مادة ملهمة للأدباء، وأبعادها الواقعية مقاومة للتحويرات التي يحاول الأدب إلحاقها بها مثل شخصية جان دارك، نابوليون، لكل ذلك لا يمنع من إخضاعها لتحويرات تخدم الرؤية والتوجه الذي يؤسس له العمل الأدبي.

ه-الحياة اليومية:

تخلق الحياة نماذج بشرية مختلفة كالبخيل والنبيل والمقامر، ويصعب في هذا الصدد إثبات أصالتها أو خضوعها للتأثير والتأثر، وتعكس هذه النماذج روح العصر فتتغير أبعادها بتغيره، كما تكشف سيكولوجية الشعوب ودورها في تحوير الحقيقة وإبعادها عن الواقع. ولا تتعلق وظيفة الباحث المقارن بمجرد وصف تلك النماذج وإنما إخضاعها لدراسات نفسية واجتماعية وسياسية وفلسفية وخلقية لسبر أعماق الفكر والحضارة.

ويعد الكاتب الفرنسي لابروبير (1645-1696) من أبرز الكتاب الذين اهتموا بتحليل طبائع عصرهم في كتابه les caractères الذي ضم ستة عشر فصلا.

3/ بعض النماذج البشرية العالمية:

أ/ فاوست:

تعد شخصية فاوست شخصيّة تاريخية في أصلها، لكنها تحولت بفعل تطوّرها إلى أسطورة شعبية مفادها أن عالما كيماويا ولد في أواخر القرن الخامس عشر وتوفي في بداية القرن السادس عشر قد قضى حياته الغريبة في السكر والكسل، ثم ما لبث المخيال الشعبي يضفي على حياته هالة من الغرائبية فتوالت القصص والأساطير الشعبية التي حيكت حوله، من ذلك أنه كان يتحاور مع الشيطان، وأنه ساحر يحدث الموتى، وأنه أمضى بدمه عقدا مع الشيطان تعهد فيه له بأن يطيعه بشرط أن يعيد له شبابه.

كان لحياة فاوست الغامضة دور في كثرة الأساطير التي حيكت حولها، ويعد الشاعر الإنجليزي مارلو Marlowe أول من أدخلها إلى عالم

الأدب سنة 1604م، فصوّر مأساة فاوست الكامنة في خضوعه التام للشيطان مما أدى إلى ابتعاده عن الحق وموته طريدًا من رحمة الله.

وروت أساطير أخرى أنه باع نفسه للشيطان بغية التعرف على الحقائق الأزلية، فما إن تحقق له ذلك حتى انصرف عنه وأعلن عصيانه له فغفر الله له، وهي الفكرة التي كونها غوته عنه Ghoethe وبفضله انتقلت هذه الشخصية إلى الأدب العالمي وصارت قادرة على تجسيد العديد من الأفكار الفلسفية والإنسانية.

ب/ دون جوان:

نالت هذه الشخصية شهرة كبيرة في الآداب الأوروبية والتقت حولها الكثير من الأقوال والقضايا المتضاربة، كالمجون والاستهتار والتمرد على التقاليد والانصراف إلى متع الحياة أو السعي إلى الكمال والارتقاء إلى أسمى المثل الإنسانية، كما بثت بعض الآداب روحا صوفية في تشكيل هذه الشخصية ونزعت عنه حيوانيته التي لازمته طويلا.

أوّل من أدخل هذه الشخصية في مجال الأدب هو راهب إسباني يدعى تيرسو دي مولينا Tirso de molina في مسرحيته "ساحر إشبيلية وضيفه التمثال الحجري" سنة 1630، وقد تجسّدت فيه كل صور المجون والانحلال والاستهتار؛ ممّا أثار حفيظة الكنيسة، حيث رأت في تدخل القوى الخارقة في المسرحية وإن بطريقة ساخرة من قبل الكاتب تهجّما على سلطتها الروحية المقدسة فألحقت به العقاب ليكون عبرة لغيره.

كما صوّره موليير Molière سنة 1665م خدّاعا للنساء، ينكر وجود الله لكنه في المقابل محسن يتصدق على الفقراء لا حبا لله ولكن حبا للإنسانية.

يعزا إلى الشاعر الإنجليزي بيرون Byron السمو بهذه الشخصية حيث وظّف هذه الشخصية في ملحمة شعريّة ساخرة ، فصوّر بطله داعيًا للحب الحر الطليق، فصار طريداً من المجتمع لا لشيء سوى أنّه وقف معارضاً متمرداً على تقاليده الظالمة المرائية.